

بن الخطاب^(١) فقد بخلت مكة وشحت، وضافت بأصحابه ﷺ فصارت من ضيقها تحصي أنفاسهم وخطاهم.. حتى بيت الله الحرام أصبح غير آمن.. يطوف به الوثنيون والمشركون وكل من شاء من أصحاب الملل، أما المسلمون الموحدون فلا!

ها هو الطاغية أبو جهل يهدد قائلاً: (لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه)^(٢). ويتمادى فيحلف بأخشابه وحجارته التي يعبدها فيقول (واللات والعزى لئن رأيتَه يفعل ذلك، لأطأن على رقبتَه، ولأعفرن وجهه في التراب)^(٣).

حبيب الله ﷺ يهدده هذا الجعظ بأن يطأ على عنقه الطاهر، فماذا ينتظر البقية سوى الموت..! أليس هناك سوى مكة.. وطواغيت مكة؟ نعم إن مكة أظهر بقعة على وجه الأرض وأعظمها، لكن هل البقاء فيها من أركان الإسلام؟ هل يتحتم على المسلمين أن يربطوا مصيرهم بمكة وقد ضاقت بهم وحاصرتهم جبالها، وأظلمت وديانها وشعابها..؟ هل يتحتم على المؤمنين أن يبقوا فيها وقد نثر الشوك في وجوههم وأقدامهم، وكعبة ربهم تنن تحت أطنان الأصنام وترزح تحت طقوس الوثنية..؟

رسول الله ﷺ حمل الإجابة بيضاء نقية: الإسلام لا يرتبط بأرض ولا وطن، ولا يرتبط بشخص ولا حتى أمة.. الإسلام عظيم فسيح.. فسيح.. إنه من السعة بحيث تستطيع أن تضع هذا الكون كله في زاوية من زواياه، ومكة جزء من هذا الكون.. الإسلام لا يرتبط بمكة، ولا ببيت المقدس ولا ببقية أراضي الأنبياء ولا غيرها، فلا حرج على هؤلاء الضعفاء من المغادرة والهجرة من أكرم بقاع الأرض إذا ضاقت وضاق أهلها، متى ما وجد المستضعفون أرضاً أرحب. لكن إلى أين سيلجأ أصحاب رسول ﷺ؟

إلى الحبشة

هذا ما تقوله أخت عمار بن ياسر من الرضاعة، صحابية اسمها: (هند بنت أبي

(١) إسناده حسن رواه البيهقي (٢-٢١٥) وابن سعد (٢-٢٦٧) وغيرهم من طرق عن أبي عامر: عبد الملك بن عمرو القيس، وهو ثقة التقريب ٣٦٤ أخبرنا خارجة ابن عبد الله بن ثابت وهو حسن الحديث (التهذيب ٢-٧٦) عن نافع عن ابن عمر قال. قال: رسول الله ﷺ .

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤ - ١٨٩٦.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤ - ٢١٥٤.

أمية) وتلقب ب(أم سلمة)، وقد أوديت هي وزوجها أبو سلمة مع من أودوا وعذبوا لأنهم يقولون: لا إله إلا الله.

تقول رضي الله عنها: (لما ضاقت مكة، وأودي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلادها، يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظملاً^(١)). كان النجاشي ملك الحبشة نصرانياً يحمل الصليب على صدره لكنه كان عادلاً.

أرض بلال تجود، وشالاتها تغسل دموع المؤمنين وأحزانهم، وتطهر جرحهم من أشواك قريش ورماحها.. لكن لماذا الحبشة؟

هل لأنها أرض النصارى، والنصارى أهل دين نزل من السماء كالإسلام تماماً..؟ ربما.. لا سيما وجزيرة العرب غابة من الأصنام، وأرض فارس تتأجج ناراً تحرق أهل فارس، وتحرق فطرتهم وتذيبها كلما ركعوا لها، أو تمسحوا برمادها وتمرغوا. ربما كان في هذا بعض الإجابة، لكن الإجابة المؤكدة هي في قول رسول الله ﷺ السابق: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده) إذاً فهو العدل، والعدل أول شرط من شروط الأمن والرخاء، وبدونه تتحول البلاد إلى غابة يرتع فيها المجرمون واللصوص والفاسدون والمتفدون، حتى لو كان الحاكم وشعبه من أكثر الناس صلاة وصياماً..

هاهو جبريل ينزل بآيات من القرآن تقول للدنيا.. للعالم.. أن العدل أحد مهمات الأنبياء. حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٢) وقريش قد فرغت أيديها وعقولها وقلوبها من العدل.

ابتسم المتسلطون وهم يرون هؤلاء الفقراء يحملون أطفالهم ويودعون مكة الحبيبة..

(١) سننده صحيح، رواه ابن إسحاق ١٩٤: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث، عن أم

سلمة. ابن إسحاق سمع من الزهري، وشيخه تابعي ثقة التقريب ٦٢٣.

(٢) سورة الحديد ٢٥.

تبللهم الدموع، وتحترق أكبادهم وهم يغادرون بيوتهم ووطنهم ومراتع صباهم.. يتركون نبيهم ﷺ وإخوانهم يتلبطون بين السياط.

فرح الطفلة والمتسلطون كلهم، إلا واحداً كان يرقب المشهد بعمق.. يقف ملجماً بالحزن.. مثقلاً بالندم.. ينظر إلى ضحاياها، ويتأمل مطاياهم وهي تتمايل مغادرة مكة، فتتنزع من قلبه بعض قسوته وعروقه.

كان صامتاً يخاطبه الندم ويقول له: ماذا فعلت يابن الخطاب، وماذا جنت يدك؟.. ويحك يا عمر.. إنهم أهلك وجيرانك وأصحابك.. ألا ترحم.. ألا يلين قلبك لهذا المنظر؟

نساء حزانى، وشباب حيارى، وأطفال لا ذنب لهم، ورجال كرام أهنئهم وشردتهم وضيقت عليهم حتى ملوا الحياة، وهم الذين كانوا يكرمون الضيف، ويحنون على الضعيف.

إلى أين أُلجأتهم يا عمر.. إلى بحر يتقلب بهم، أم إلى أرض لا يعرفون بها أحداً، ماذا سيكون مصيرهم..؟ أنت لا تعرف، وهم لا يعرفون. هل خلقت بلا قلب يا عمر؟ تقدم أيها القاسي وقل شيئاً يخفف من لوعتهم.

وتقدم عمر، وتحرك قلبه وتحركت شفاته نحو هذا المشهد المعبر، الذي ترسمه لنا إحدى المغادرات كالحزن على تلك المراكب..

إنها امرأة تدعى أم عبد الله، وهي زوجة صحابي كريم اسمه عامر بن ربيعة. فتقول: (كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة.. جاءني عمر بن الخطاب وأنا على بعير نريد أن نتوجه فقال: أين يا أم عبد الله؟

فقلت له: أذيتونا في ديننا، فنذهب في أرض الله حيث لا تؤذى في عبادة الله ﷻ والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ أذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً^(١). ﷻ ورأيت له رقعة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه خروجنا ﷻ. ثم ذهب، فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقعة عمر ابن الخطاب فقال:

(١) هذه الألفاظ ما بين المعقوفين من رواية أخرى.

ترجين يسلم؟ فقلت: نعم. قال: فوالله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب - وهذا من شدته على المسلمين-^(١).

وتحركت المطايا والقلوب تلوح لمكة، وركب المعذبون البحر، وارتفعوا مع الموج وانخفضوا، حتى قذفتهم المراكب على سواحل الحبشة، فرأوا الأمان وتلمسوه فعانقوه وارتاحت قلوبهم، واستراحت أبدانهم من شراسة قريش. أما رسول الله ﷺ وبقية أصحابه فمكثوا في مكة يمشون على الأشواك، ويحشى عليهم التراب، ويبصق في وجوههم. لكنهم لا يتراجعون.. يدعون ويدعون، ويكثر أتباعهم كل يوم، فتضطرب قريش من هذا الدين الذي يشهد عوده كلما اضطهد وعذب أتباعه، كأنهم يقاتون الشقاء والمعاناة.. يحسسون المرارة، فيزدادون صفاءً وتألقاً، كأن الشدائد تزيدهم صفاءً ونقاءً يوماً فيوماً.

هذا شاب يخفي إيمانه عن والده.. اسمه عبد الله بن عمرو بن العاص.. يحدث رجلاً، ويخبره عن أشد المناظر التي رآها فظاعة.. أشد مناظر قريش قسوة، وهي تتال من رسول الله ﷺ فيقول: (لقد رأيتهم -وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر-، فذكروا رسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من هذا الرجل قط.. سفه أحلامنا^(٢)، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصبرنا منه على أمر عظيم....

فبينما هم في ذلك، طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، فلما مر بهم طائفاً بالبيت، غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى، فلما مر بهم الثانية؛ غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه، فمضى ثم الثالثة، فغمزوه.

فوقف، ثم قال: أسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنا على رأسه طائر^(٣) واقع،

(١) هو خبر وليس بحديث رواه ابن إسحاق ١٨١، حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه ليلي. وفيه ضعف يسير من أجل التابعي عبد العزيز فقد وثقه ابن حبان فقط (١١٥/٧) وسكت عنه ابن أبي حاتم (٢٨٥/٥) لكنني أوردته لأنه تابعي كبير ولأنه يروي هذه القصة عن أمه - جدته، ولأنه ليس بحديث.

(٢) سخر من عقولنا.

(٣) أي أنهم قد سكتوا وخيم السكون عليهم.

حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه^(١) أحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول:
انصرف يا أبا القاسم فما أنت بجهول.

فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرت ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا - لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول رسول الله ﷺ: نعم. أنا الذي أقول ذلك، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع رداءه وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيكي دونه^(٢).

وقد ذكر عبد الله اسم ذلك الجلف فقال: (أقبل عقبة بن أبي معيط -ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة - فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبيه، فدفعه عن رسول الله ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم)^(٣).

ووصف صحابي آخر مشهداً عنيفاً فقال: (ما تتول من رسول الله ﷺ شيء كان أشد من أن أطاف بالبيت - ضحى - فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع رداءه وقالوا: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا؟

فقال ﷺ: أنا ذاك. فقام أبو بكر رضي الله عنه فالتزمه من رداءه، ثم قال: ﴿ أَنْقَسْتُمْ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾^(٤).

(١) يداريه.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ٢١٢ حدثني يحيى بن عروة، عن أبيه قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته، وابن إسحاق لم يدلس، ويحيى تابعي ثقة. التقريب ٥٩٤.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٨١٤.

(٤) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٢٧٧ من طريق العباس بن محمد بن حاتم وهو ثقة حدثنا ابن مخلد وهو صدوق التهذيب ٥-١٢٩-٣-١١٦ حدثنا سليمان بن بلال. ثقة التقريب ٢٥٠ حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله.. وهشام ووالده ثقتان مرا معنا كثيراً .

كل هذا ورسول الله ﷺ يتجرع مرارة الأذى صابراً، فقد أرسل لبيع الحياة في هذه النفوس المنهكة.. ليجمع أشلاءها المبعثرة.. ليجعل من هؤلاء الجفاة شמוש حضارة تمنح الضياء للعالم، والدرب طويل وشاق، وقد تكومت في قلوب هؤلاء الوثنيين أسباب النقمة وبين أيديهم سبل الانتقام، ولن يتورعوا عن ارتكاب الحماقات مهما كانت كارثية، وسيتلذذون بذلك، وسيشربون الخمر بهجة بانتصار مزيف على جسد بلال أو عمار وغيرهما. لكن كل ذلك سيتلاشى مع الليالي والأيام والصبر والمصابرة، فالنصر قادم لا محالة، والإيمان مطر تنشره رياح الحرية في الأرض، فإذا قلوب البشر قد اهترت وربت، وأزهرت فيها الحياة العذبة الجميلة.

ذات يوم بهرب رسول الله ﷺ من مكة، ويلوذ بالفرار معه أبو بكر الصديق.. تطاردهما جلافة قريش وسفهاؤها، فيجدان الأرض خارج مكة أدغلاً من الخوف والرعب.. عطش ورمضاء وعرق، لكن محمداً وصاحبه كانا غيمتان.. أمطرتا فإذا الربيع بحجم العالم.. ربيع من العلم والإيمان اسمه:

عبد الله بن مسعود

شاب هذلي نحيل الجسم.. دقيق الساقين اسمه عبد الله بن مسعود. كان مجرد راع للغنم، وطموحه لا يتعدى البحث عن الكلاء، وقبض دراهم معدودة.. حوله الإسلام والتوحيد إلى شمس تضيء من حولها.

ها هو يتحدث عن تلك الشعلة التي فجرت طاقاته في مرعى الغنم، فيقول رضي الله عنه: (كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليّ رسول الله ﷺ وأبو بكر - وقد فرا - من المشركين فقالا: يا غلام، عندك لبن تسقيننا؟ قلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما، فقالا: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم. فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا.. فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعة، فحلب فيها، ثم شرب هو وأبو بكر، ثم سقاني، ثم قال للضرع، اقلص. فقلص. فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب - يعني القرآن - فقال رسول الله ﷺ: إنك غلام معلم، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد)^(١).

(١) سنده حسن، رواه البيهقي ١٧١-٢ وأبو أحمد ٤٦٢-١ وغيرهما من طرق عن حماد بن سلمة وهو ثقة =

إنها لمعجزة أن يدر ذلك الضرع باللبن، ثم يقلص وينشف. كذلك الإسلام.. معجزة، فقد جعل من رويي الغنم عالماً عظيماً، في وقت كان زبانية قريش ينتظرون خبر موت محمد وصاحبه خارج مكة. ولئن كانت مكة لا تأبه كثيراً لإسلام عبد الله بن مسعود، لأنه في نظرهم مجرد راعي غنم قصير القامة.. ضعيف البنية.. دقيق الساقين جداً. إذا كانت قريش لا تأبه لإسلامه ولا تتشاهد فيه إلا جسداً ضئيلاً، فإن الإسلام يأبه ويحتفي كثيراً، ويرى فيه إنساناً عظيماً.. يحتفي به كاحتفائه به:

إسلام حمزة

إذا كان ابن مسعود الضعيف قد أسلم خارج مكة ورسول الله ﷺ هارب من تعذيب أهلها له، فإنه قد قيل إن حمزة بن عبد المطلب ذلك الأسد الفاتك.. عم رسول الله ﷺ قد أسلم أيضاً، بعد عملية اضطهاد لرسول الله ﷺ (كان إسلام حمزة حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد فإذا رجع مر بمجلس قريش وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا، وصنعت كذا.. وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رمية ذات يوم فلقيته امرأة، فقالت: يا أبا عمار، ماذا ألقى ابن أخيك من أبي جهل بن هشام: شتمه وتناوله، وفعل وفعل.

فقال: هل رآه أحد. قالت: أي والله لقد رآه ناس فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم، فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا.. وكذا وفعلت كذا.. وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله.

قالوا: يا أبا عمار إنه سب آلهتنا وإن كنت أنت أفضل منه ما أقررتك وذاك، وما كنت يا أبا عمار فاحشاً^(١).

قد تكون هذه هي قصة إسلام حمزة، وقد يكون لإسلامه قصة أخرى.. الله أعلم،

= معروف، عن عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث. انظر التهذيب (٢٨/٥) عن الثقة المخضرم زر بن حبيش.

(١) أقول: قيل لأن الرواية لم تثبت عندي، فهي مرسله عند الطبراني، معضلة عند ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، والطبراني، انظر مجمع الزوائد ٩-٢٦٧ والسيرة الشامية (٤٣/٢) فهي ضعيفة.

وسواء كان ذلك الذي حدث أم لا، فإن إسلام حمزة كان نصراً هز مكة من أقصاها إلى أقصاها، فالأمر أصبح خطيراً، والأقوياء الذين كانوا يخشون زوال سمعتهم وما تجنيه لهم تلك القوة من أضواء، بدأوا ينضمون إلى صفوف المؤمنين ويزيدونها قوة، فقد أدركوا كم هم ضعفاء أمام قوة الإسلام وحجته.. أمام قوة القوي الذي لا يقهر سبحانه، فهل من سبيل إلى خروج قريش من هذا المأزق.. قبل أن يجدوا أنفسهم غرباء داخل مكة.

المفاوضات بعد إسلام حمزة

لم يصدق عتبة بن ربيعة أن حمزة أصبح اليوم مع ابن أخيه.. درعاً يحميه، وسيفاً يشق به صفوف قريش.. كم يصعب الوصول إليه وحمزة معه. اغتاط عتبة أحد أسياذ مكة مما يحدث (فقال يوماً وهو جالس في نادي قريش - ورسول الله ﷺ في المسجد وحده -:

يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء وكيف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حين جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد.. أسمع.

قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا.. جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه؟ أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه..

قال: لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال عتبة: افعل. فقال

رسول الله ﷺ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَل إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ قُل إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَى مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَتَيْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾ فَفَضَّضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَآءِ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ وَحَفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٣﴾ فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مِنَّا مَلَكَةً فَإِنَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٦﴾ فَآرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢٠﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي

ظَنَنْتُمْ بَرِيَّتَكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ وَإِنْ
يَسْتَعِيبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِقَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ
النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَأْتِينَا بِمُحَدِّثُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ
أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا
بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ
فِيهَا مَا شِئْتُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَهِمْ رَجِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ
الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ
﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ عَابَتْهُ الَّتِيلُ وَالنَّهَارُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ
كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿١﴾

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبه أنصت لها، ألقى
بيده خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها،
فسجد ثم قال: قد سمعت أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبه إلى أصحابه. فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد
بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد.. ٩.

(١) سورة فصلت: الآيات ٢٨.١ والآيات التي ذكرت هي التي جاء في الحديث أنه قرأها.

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم^(١).

أدرك عقل عتبة إعجاز هذا القرآن، وبهرته آياته، لكن قلبه كان صخرة تثقله، والهوى يعمي ويصم.. كانت أنياب العادات والتقاليد وبقايا سمعته مغروزة فيه، وهو أضعف من أن يتخلص منها، فهو في ريبة يتردد.. لا يجد له استقراراً.. في نزاع بين ما هو مقنع وصحيح، وبين ما اعتاد عليه وتشربه قلبه، وأخيراً دحرجته جموع الكفر إلى الكفر.. دحرجت قلبه الصخري على عقله، فانطمس، أما محمد ﷺ فأعلنها:

لاتنازل

هذا هو مبدأ نبي الإسلام ﷺ وإمام القادة.. لا يقبل إطلاقاً أي تلفيق أو ترقيع في المنهج، فلا جسور في العقيدة بينه وبين الكفر إطلاقاً. من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، لكن لا وجود في الإسلام لعقيدة مشتركة مع الأصنام والأوثان.. لقد نشروا بين يديه خيارات مغرية:

الزعامة، والمال، والسيادة عليهم وهم سادة العرب، لكنه ﷺ رفض ذلك كله.. كان بإمكانه أن يتزعمهم، ثم ينقلب عليهم إذا اشتد عوده وكثر أتباعه.. كان بإمكانه أن يعقد هدنة معهم، ثم يأخذ من المال ما يتيح له أن يعد جيشاً من المرتزقة يكتسحهم به، لكنه الأمين، والأمين لا يخون، والأمين يقول: (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)^(٢) ولن يخون ﷺ مسلماً ولا كافراً ولا مشركاً مهما كانت الأسباب، فالأمر

(١) حديث حسن، رواه ابن إسحاق ابن هشام ١-٢٦٢ بسند صحيح لولا خشية الإرسال: حدثني يزيد ابن زياد، عن محمد بن كعب القرظي: حدثت أن عتبة بن ربيعة.. يزيد ثقة. التهذيب ١١-٢٢٨ وابن كعب تابعي ثقة وروايته عن الصحابة، وروى عن تابعي أو اثنين، وله شاهدان عند: عبد بن حميد ٣٢٧ وفيه ضعف يسير من أجل الذيال بن حرملة فلم يوثقه الا ابن حبان. وشاهد قصير عند ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر. وفيه عنفة ابن إسحاق.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي ٣-٥٦٤ وغيره عن أبي صالح عن أبي هريرة. وأبو داود ٣-٢٩٠ عن يوسف بن ماهك وهو تابعي ثقة عن أبيه مرفوعاً وغيرهم

عقيدة، والقيادة عقيدة عند رسول الله ﷺ. فإما أن تكون لله، أو تكون للشيطان، ولن يشاطر الشيطان قيادةً ولا نهجاً.

لقد كان ﷺ يتنازل عن حقه.. يؤذى فيصبر.. يسيل دمه فيمسحه، ثم يعود إلى بيته مكسور الخاطر صابراً حزيناً محتسباً.

كانوا يضعون النجاسة على ظهره، وهو ساجد لوجه ربه وأمام كعبته، فيصبر أيضاً ويحتسب.

كان الصحابة يناشدونه.. يكون جراحهم.. يبحثون عن خلاص، فيطالبهم بالصبر، ثم الصبر، ورغم ذلك كله، وبعد هذا العذاب كله، تجده يذهب إلى أنديةهم مبتسماً.. يدعوهم ويدعوهم، ولا يمل من دعوتهم، وكانوا يأتونه في بيته رغم عداوتهم له.. يضعون أموالهم وودائعهم عنده، ويلقبونه بالأمين.

ما الذي يجري، وما تفسيره..!! سيأطهم على ظهره، وأموالهم ودائع محفوظة عنده!! ألم يقل عليه السلام: هؤلاء مشركون نجسون، فمالهم حلال لي، ولا عهد لهم ولا ذمة ولا كرامة. لم ينتقم لنفسه أبداً، لم يعاقب أحداً لأنه ضربه أو شتمه، بل كان يدعو لهم بالهداية.

هذا هو الفرق بين رسول الله ﷺ وبين مسلمين أعاقوا الإسلام أكثر من أعدائه: منهم من يتنازل عن بعض مبادئ العقيدة من أجل مكسب سياسي أو مادي، ومنهم من يرى أن السياسة رجس من عمل الشيطان يجب اجتنابه، ويتهم كل من يتعاطاها، مع أن الحكم والسياسة من توحيد الألوهية الذي هو حق لله سبحانه وحده، وهناك من تنحط أخلاقه، فيجعل من حسده - لتمييز أخوانه الدعاة - موجهاً لكل تصرفاته وأحكامه ومواقفه، بل يسفل لدرجة أن لا يرى في العالم أخطاء وهفوات سوى هفوات الدعاة.

وهناك من يحاسب الناس وكأنهم يعلمون كل شيء عما يحاسبهم عليه مثل علمه تماماً، وهناك من يدعو الناس وقد حرم على نفسه الابتسام، ورسم على وجهه كل أنواع العبوس والتكشير.. كأنه خارج من معركة ضاع فيها الشرف وسالت فيها الدماء، وكان رسول الله ﷺ لم يكن أكثر الناس تبسماً، وأكثر الناس تطيباً، وأزكى الناس رائحة.. كأن الرسول ﷺ لم يقل إن الله جميل يحب الجمال. وهناك من يعامل جيرانه من غير المسلمين وكأنهم كلهم يتعمدون الكفر بالإسلام، وكان المسلم غير ملزم

بدعوتهم قبل بغضهم واضطراهم إلى أضييق الدروب. ويفغل هؤلاء - وهم في غمرة حماسهم - ويتناسون:

ما حدث لركانة

مشرك قوي البنية.. لم يتمكن أحد من طرحه على الأرض، ويبدو أنه قد تميز عن أهل عصره بتلك البنية البدنية الجبارة.

هذا الرجل يرى في جسده كل ثروته وشهرته، أما رسول الله ﷺ فكان يرى في تلك العضلات المنحوتة أبواباً إلى عقل ركانة وروحه، فلا بأس من طرقها لعل الله أن يهديه للإسلام، فيقرر ﷺ ممارسة لهو مباح مع هذا المشرك، ولا أحد يستطيع أن ينكر أن ما قام به ﷺ ليس من اللهو، فماذا فعل ﷺ مع ركانة؟

لقد (كان عليه السلام بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة، أو ركانة بن يزيد، ومعه أغنزله فقال له: يا محمد هل لك أن تصارعني؟ فقال: ما تسبقني؟ قال: شاة من غنمي.

فصارعه فصرعه فأخذ شاة. قال ركانة: هل لك في العود؟ قال: ما تسبقني؟ قال: أخرى. ذكر ذلك مرارا.

فقال: يا محمد والله ما وضع أحد جنبي إلى الأرض، وما أنت الذي تصرعني. فأسلم ورد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم غنمه^(١).

هل هناك من يقول إن رسول الله ﷺ كان يمارس شيئاً غير اللهو المباح..؟ هل كان ﷺ بتلك المصارعة يتدارس معه علماً.. أدباً أو صلاة؟

بالطبع لا. لكن من المؤكد الذي لا شك فيه أن لرسول الله ﷺ هدفاً من تلك المصارعة أسمى من غنماته وعضلاته. كان ﷺ يسعى لإسلامه.. يفتش داخل هذا الجسد الصلب عن توحيد مكبل ليحرره.. كان ﷺ يقدم درساً لأمته يكشف فيه مدى حاجة هؤلاء

(١) رواه أبو داود في المراسيل (سنن البيهقي الكبرى ١٠ - ١٨) عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير، وهو مرسل وله شاهدان أحدهما عند الخطيب وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥٠١).

المشركين إلى التوحيد والإيمان، وأن هؤلاء المشركين مهما بلغت قسوتهم وطفح طغيانهم مساكين.. غرقى، بحاجة إلى من ينتشلهم من قلب الظلمة. من أجل ذلك قدم ﷺ درساً يبيح فيه الخوض في أبعاد الحلال وأعماقه من أجل إنقاذ إنسان كركانة.

ماذا يقول المرء وهناك من يتناسى - باسم الإسلام - فعله ﷺ ولهوه مع ركانة وهو ليس بمسلم..! ماذا يقول المرء وهناك من يرى أن اللين لا يجوز إلا مع الملتزمين المتمسكين بسنة رسول الله ﷺ، وأن الشدة والغلظة والعبوس أشياء مطلوبة مع من لا يظنهم كذلك؟! ويصنف الناس وينسى أثناء تصنيفه ما هو أهم.. ينسى أخوة الإسلام، ويحاول التملص من واجبات تلك الأخوة.

إنها ميول مغلفة بطابع ديني، وما كان رسول الله ﷺ يمرر شهوته من خلال الدين، لقد كان ﷺ يرسم.. يطبق شرعاً في التعامل والقيادة.. كان سمحاً مبتسماً.. لا ينتقم لنفسه أبداً، ولا يرصد الأخطاء على من ظلموه ليتشفى، بل كان يعفو.. كان يصل هؤلاء المشركين، ويعرف حق القرابة والرحم، رغم افتراقه عنهم في العقيدة، لأنه مكلف بتسليمهم رسائل ربهم فرداً فرداً، ومكلف بالصبر والانتظار، ولو تحولت الأرض كلها إلى كفر بالله.

هؤلاء يبذلون القليل وينظرون الكثير، ويغضبون إن لم يظفروا بنتائج، أما رسول الله ﷺ فكان يكدح ويعمل ويبذل ويصبر، ولا ينتظر شيئاً من أحد.. كان ينتظر الجزاء من الله، فإن ظفر بنتائج وظيفها كما وظيف نفسه، وجعلها للأرض سلاماً ونوراً للتائبين ولو طال الانتظار، فلا يأس مع الدعوة، ولا يأس مع الدعاء:

لا يأس مع الدعاء

كان ﷺ حزيناً لما يجري لصحابته وأتباعه من تعذيب وإيذاء، وتكيل شديد على أيد طغاة قريش وزبانيته، كانت الأحداث التي تعصف بهم تؤذيه وتعصر قلبه، فيتوجه بهذا الدعاء الحار إلى ربه: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر بن الخطاب)^(١) فقد كانا أشد من يسلخ ظهور المؤمنين ويعذبهم فوق

(١) سنده حسن رواه ابن سعد ٢٦٧/٣ وغيره وقد مر معنا عند الحديث عن التعذيب.

الرمضاء، وكان عمر أخف حدة، وقد لاح ذلك عندما وقف ممتلاً بالحزن وهو يودع الصحابة المغادرين إلى أرض الحبشة، لكن قسوته تغلبت على رفته.

بدأ ابن الخطاب يمارس دوره في التعذيب مع أقرب الناس إليه، وأقربهم وألينهم قلباً وجسداً.. أخته المسكينة، التي ليس لها ذنب سوى أنها تقول: ربي الله. وعذب زوجها الصابر: سعيد بن زيد رضي الله عنه الذي يقول: (والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قيل أن يسلم عمر)^(١).

حبال وسياط هي أدوات الحوار التي كان يجيدها عمر ويكثر من حملها، فالجاهلية التي كان يعتقد أنها لا تستطيع البقاء إلا بالحبال والسياط، لكن القلوب لا تدخلها السياط، والأفكار لا يثنيها الحديد، ولكن مهما كانت قسوة عمر، فإنه ما زال بشراً يحمل قلباً.. ما زال يحمل عقلاً.

عمر يلقي آخر السياط ويسلم

عمر بن الخطاب.. الرجل الحديدي يسلم، وتلك القوة التي كانت تزرع فوق أنفاس المستضعفين انزاحت، فهل ستستحيل بين أيديهم سلاحاً يشقون به طريقهم وسط غابة الخناجر والسيوف، وأغصان من المشانق والقيود، أم أن عمر سينضم إلى قافلة المستضعفين الذين لا يملكون حولاً ولا طولاً؟

كل تلك التساؤلات.. أجاب عنها عمر، فهو لم ينتظر أن يسأله أحد: كيف أصبحت..؟

أراد أن يعلن صباحه الجديد على مكة.. أراد أن تشرق شمسُه على جبال مكة وبيوتها، فلم ينتظر أن تزحف الأخبار إلى بيوت مكة بخبر إسلامه.. أرادها أن تطير.. أراد أن يقول إنه تخلص من شركه كما تخلص الأشجار من أوراق الخريف الصفراء.. على الطرقات وفي البيوت، ويحملها الهواء في أجواء مكة، لتشعر قريش بالحاجة للمطر.

هاهو مع ابنه الصغير عبد الله.. يسأل من حوله.. يبحث عن رجل يحب النميمة ونشر الإشاعات، فيقول: (أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. فغداً عليه.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وقد مر معنا.

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلام
أعقل كل ما رأيت -، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنني أسلمت، ودخلت في
دين محمد ﷺ؟

فوالله ما راجعه حتى قام يجرد رداءه، وأتبعه عمر، وأتبعته أنا، حتى إذا قام على
باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا
إن ابن الخطاب قد صبأ.

فقال عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن
محمدًا رسول الله.

وثأروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاثلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح^(١)
فقعدهم، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة
رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا.

فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة^(٢) وقميص موسى، حتى
وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟

فقالوا: صبأ عمر. فقال: فمه؟ رجل اختار لنفسه فماذا تريدون؟ أترون بني عدي
يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلوا عن الرجل.

يقول ابن عمر: فوالله لكانما كانوا ثوباً كُشِطَ عنه، فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى
المدينة: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال:
ذاك بني "العاص بن وائل السهمي"^(٣).

يقول الطفل ابن عمر: (فتعجبت من عزه)^(٤).

(١) تعب.

(٢) ثوب من قطن أو كتان كان يصنع باليمن.

(٣) سننده صحيح، رواه ابن إسحاق ١٦٠: حدثني نافع عن ابن عمر، وهو سند كالذهب نافع تابعي معروف
ثقة ثبت مشهور، وابن إسحاق صرح بالسماع منه.

(٤) سنده قوي رواه في فضائل الصحابة ١ - ٢٨٢ حدثني محمد بن أبي عمر ثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن
بن عمر. ورجاله أئمة ثقات وابن أبي عمر صدوق صنف المسند لازم بن عيينة تقريب التهذيب ٥١٣.

ولم يكن عز هذا الرجل بأعظم من إجابته المفحمة لعصابة الكفر، إنه يرفض مبدأ قريش في تكميم الأفواه وتقييد الحريات، فالرجال أحرار في اعتناق ما يرونه، وعمر حر في اعتناق ما رآه صواباً وحقيقة، فلماذا التبرم يا قريش؟!

صمتت قريش وانسحبت، فهي لا تريد أن تفقد شخصية بارزة وشيخاً مهيباً كالعاص، ولأنها تفتقر إلى أسلحة العقل والإقناع.

قريش لا تملك شيئاً يبرر أصنامها وطقوسها، لكنها تملك صراخاً وضجيجاً تزاخم به أجواء الحوار الهادئة، فإذا ما ماجت الساحة بالفوضى والغبار والضجيج، مرَّرت ما تريد وفرضت ما تشتهي، وأبقت الدعاة في أجواء الخوف والرعب، لعلهم يتراجعون عن رسالتهم التي تخطف القلوب والعقول بهدوءٍ من صفوفها. لكن رسول الله ﷺ استمر في هدوئه ودعوته.. يزداد سكينه كلما ازدادوا شراسة، ويبشر كلما عسروا وشددوا، وبيتسم كلما كثرُوا عن أنياب دامية، ويلاطف الناس جميعاً بأسلوب ساحر آسر.. مفعم بالحب والشفقة.. كله ود وجمال.. كأنه خير ماء.. كأنه ساحة من الزهور فسيحة.

هذا الأسلوب جعل معسكر الكفر يفقد أعضابه وأفراده، فبالأمس كانت قريش تفقد أفراداً ربما لم يكن لهم تأثير، أما اليوم فهي تفقد أقوياء مفتولين كالحديد.. هاهو حمزة ينسحب منهم، ويتبعه عمر بن الخطاب، وهاهم الضعفاء يقتربون من الكعبة.. يطوفون بها، بل يصلون عندها، وهاهو أحدهم.. راعي الغنم الفقير عبد الله بن مسعود يقول: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)^(١).

كان إسلامه فضاءً جديداً.. فسحة وجد فيها بعض المسلمين ساحة أمانة يركعون فيها ويسجدون لله قرب الكعبة، حتى قال ابن مسعود: (والله ما استطعنا أن نضلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر)^(٢).

عمر اليوم سيف للإسلام لا يفل، ولا يحول بينه وبين رقاب الطغاة حائل، فأصبح لأقدام المستضعفين مكان في بيت الله الحرام، وجوار الكعبة.. يتجمهرون حول نبيهم

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٢-١٤٠٣.

(٢) حديث حسن رواه الحاكم ٣-٩٠ وغيره من طرق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله. والصواب: دون كلمة أبيه عند ابن سعد ٣-٢٧٠ وله عنده شاهد يقويه.

ﷺ عند الكعبة، ويسمع المهاجرون إلى الحبشة بتلك الأحداث المفرحة، فيركب بعضهم الأمواج والبهجة عائداً إلى رسول الله ﷺ.

وفي يوم من تلك الأيام التي يلتف بها الصحابة حول نبيهم ﷺ، وقد زاحمهم المشركون أيضاً تنغيصاً ومضايقةً.. في مجلس الأخلاط هذا كان ﷺ يتغنى بآيات من سورة النجم:

﴿ أَفَرَأَيْتَ (١) الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَآكَدَى (٣٤) أَعْنَدَهُ، عِلْمَ الْعَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يَبْتَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَا نَزُرُ وَازِرَةً وَزُرَّ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعَى سَوْفَ يَرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشَاءَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى (٤٩) وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيْتِهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى (٥٢) وَالْمُؤَنَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا عَشَى (٥٤) فَبَآءَ آلَاءِ رَبِّكَ تَمَآئَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى (٥٦) أَرَفَتِ الْأَرِفَةَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَرَنْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجُونَ (٥٩) وَقَضَّحُكُونَ وَلَا تُبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَآئِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۝ ﴾ (١). وبعد أن قرأ ﷺ هذه الآيات سجد (وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس) (٢) (غير شيخ أخذ كفاً من حصيٍّ أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا) (٤).

سجد الكفار المعاندون وسجد المؤمنون.. أخذتهم هذه الآيات، فساحت بهم في رحلة بدأت من الآخرة، حيث القبور الثائرة المبعثرة، وحيث الأموات يشقون أكوام التراب والغبار.. ينتفضون.. يخرجون يبحثون عن الداعي والمنادي نحو أرض المحشر، وتنتهي بهم الرحلة هناك بين الخرائب الصامته.. خرائب عاد وثمود وقوم لوط.. إلى

(١) بدأت الآيات من هنا لأن الآيات التي قبلها تتحدث عن الإسراء والمعراج، فكأنها هناك.

(٢) سورة النجم.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤٠٥-١.

(٤) متفق عليه.

حيث الجثث منثورة متورمة من الماء.. جثث قوم نوح المتعفة التي طوح بها الطوفان في كل مكان، وأثناء هذه الرحلة المخيفة يدخل المسافرون عالماً مدهشاً وعجيباً يقال له الإنسان.. بدايته حقيرة، لكنه يتمدد حتى يصبح عوالم تثير الدهشة والحيرة.. تحني الرقاب، وتخضع القلوب والجباه لقدرة الله واعترافاً بعظمته. رحلة تفتح القلب والعقل لأسئلة مصيرية جوابها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٤ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُثَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ۝١٦ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٧﴾^(١).

تأثر السامعون المسلمون والمشركون أيضاً، فسجدوا لله وحده لا لشيء آخر^(٢)، حتى ذلك الشيخ الوثني الحجري.. لم يستطع كبت شعوره نحو هذه الآيات وتأثره بها، فرفع ملء كفه من الحصى ووضعها على جبهته.

لحظات من الخضوع والخشوع كانت تطوف بالكعبة، وبالملتفين حول نبي الرحمة ﷺ، لكن تلك اللحظات لم تلبث طويلاً، لقد مرت بالمشركين يطاردها الشيطان.. عاد الشيطان من جديد يتمدد في الشرايين والقلوب.. يثير في نفوس زعماء المشركين، وفي كل زعماء الدنيا الرعب والخوف من المستقبل المجهول.. من محمد ﷺ وصحابته. يقول إنهم في طريقهم إلى السيطرة على مكة وغيرها، ولا بد من إيقاف ذلك الزحف المفزع.

(١) هذه الآيات العظيمة قرأها أحد كبار علماء الأجنة في كندا والعالم البروفيسور (كيث. إل. مور) فأذهلته، وأذهله إعجازها، فهي دقيقة ومعلوماتها لا يستطيع بشر في عصر النبي عليه السلام التوصل إليها، فدرس القرآن وأعلن إسلامه، وقال إن مراحل الخلق في القرآن أدق من تلك المراحل التي وضعها في كتابه وهي: ٣، ٢، ١: إلى مراحل القرآن.. نطفة فعلقه فمضغة.. وهكذا، وهي آيات تثبت البعث يوم القيامة، فسبحان من حفظ هذا القرآن.

(٢) أقصد بالشيء الآخر تلك القصة الغريبة (قصة الغرائيق) المخالفة لصريح القرآن الضعيفة سنداً. انظر رسالة (نصب المجانيق لنسف قصة الغرائيق) للعلامة الألباني رحمه الله ولأستاذي الشيخ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي نقد علمي لها في (مغازي عروة).

نجح الشيطان ورمى بقريش نحو التطرف من جديد، وها هو الشر يغلي برؤوس طواغيتها، فيقررون الإقدام على جريمة حمقاء.. جريمة يرتكبها الطواغيت في كل زمان ومكان.. تمهيدا لاغتيال الحرية والعقل والإرادة: التصفية الجسدية.

محاولة قتل عمر

عمر بن الخطاب شجاع.. قوي، وليس من السهل النيل منه، لذا.. لا بد من حشد يحملون عليه حملة رجل واحد، فاتفقت قريش على هذا الأمر، وسارت مجموعة كبيرة لا قبل لعمر بها، فلزم بيته لا يغادره، لكن الخبر وصل للعاص بن وائل من جديد، فكان له كلمة أخرى وتصرف آخر، بعد أن رأى حشود الطواغيت يحاصرون عمر في منزله تمهيدا لاقتحامه والإجهاز عليه.

لحظات تحبس الأنفاس يرويها طفل صغير كانت عيناه زائعتان ترتعشان خلف ذلك الباب الذي يتعرض لصلف رجال تخلوا عن رجولتهم وعقولهم.

عبد الله بن عمر ذلك الطفل المحاصر مع أبيه، والذي يتلصص اليتيم عليه من شقوق الباب.. يتحدث عن تلك اللحظات التي غاب فيها العقل، فحضرت ثقافة الأصنام وحشوده!!

يقول أن والده كان (في الدار خائفاً، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي، وعليه حلة حبرة، وقميص مكفوف بحريز فقال: ما بك؟ قال عمر: زعم قومك أنهم سيقتلونني لأنني أسلمت. قال: لا سبيل إليك أمنت. فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادي فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليه. فكر الناس وتصعدوا^(١). عنه^(٢)) ورجعوا والغيط يملؤهم. رجعوا.. لا لعقولهم، ولكن ليحرموا رسول الله ﷺ وأتباعه فرص التفرغ لمشروعهم الدعوي، فما كانوا ليتروكا دقيقة صفاء إلا وحاولوا التسلسل لتعكيرها.. هاهم يجتمعون مرة أخرى فيقررون:

(١) تفرقوا عنه.

(٢) متفق عليه.

الذهاب إلى أبي طالب

فكما أن العاص قد أجار عمر، فإن أبا طالب يحمي ابن أخيه محمداً ﷺ، فلا بد من كسر الحماية..

لا بد أن تكون تلك الحماية بشروطهم، ولا بد من الضغط عليه وعلى عمه له يتراجع، وكان ذلك التراجع هو الحلم لقريش عندما (جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال لابنه: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد.

يقول عقيل: فانطلقت إليه، فاستخرجته من خيس^(١) - بيت صغير - فجاء به في الظهيرة، في شدة الحر، فجعل يطلب الفياء^(٢)، يمشي فيه من شدة الحر الرخص^(٣)، فلما أتاهاهم قال أبو طالب: إن بني عمك قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديتهم ومسجدهم، فانتبه عن أذاهم.

فحلق^(٤) رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة.

فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا^(٥).

فرجعوا، لكن إلى ماذا؟ رجعوا لـ:

(١) ويعني أيضاً بيت الأسد.

(٢) الظل.

(٣) العرق.

(٤) أي رفع وأجال.

(٥) سنده جيد، رواه البخاري في تاريخه (٥١/٧) والبيهقي (١٨٦/٢) من طريق: يونس بن بكير، عن طلحة بن يحيى بن عبد الله، عن موسى بن طلحة: أخبرني عقيل بن أبي طالب. ويونس حديثه حسن: التقريب ٦١٣ وطلحة حسن الحديث من رجال مسلم، وموسى تابعي ثقة التقريب ٥٥١، وقد وردت هذه القصة بسند ضعيف ولفظ مختلف عند ابن إسحاق والبيهقي (١٨٧/٢) بلفظ: يا عم لوضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه، وراوي هذا الحديث هو يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس لم يذكر من هو شيخه بل قال: حدثت أن قريشاً قالت:... ثم إن فيه جهالة التابعي انظر التهذيب ١٢-١٩٢، فهو كما قال الإمام الألباني: من أتباع التابعين. وتعليق الألباني على فقه السيرة الغزالي (١٠١).

الاضطهاد من جديد

فقد سقط أمل كان يترنج لهم في الأفق، واتضحت الرؤية على أرض مكة .. إما الله، وإما الأصنام .. إما التوحيد، وإما الشرك .. لا جسور بينهما ولا اتصال.

سقط أحد الآمال التي كانت تحملها قريش، فأغضبها ذلك السقوط، فعزمت على العودة من جديد .. للتعذيب من جديد، وسيكون هذه المرة أقسى وأغلظ وأشد .. ستصل أنيابه إلى الجميع دون تفريق، لقد قررت قريش أن تملأ مكة بالدماء ..

هاهم وقد أمسكوا برسول الله ﷺ يضربونه ضرباً شديداً حتى أسالوا دمه، فيهرب هائماً مغموماً كئيباً، فيأتيه جبريل عليه السلام (وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟

فقال ﷺ له: فعل بي هؤلاء .. وفعلوا. فقال جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم. فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة.

فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. فقال جبريل: مرها فلترجع. فأمرها، فرجعت إلى مكانها.

فقال رسول الله ﷺ: (حسبي)^(١).

آية عظيمة، ومعجزة تسليه ﷺ .. تمسح عنه دماء نازفة، ودموعاً حارقة، فيعود لمكة مرة أخرى .. متخفياً عن أعين القوم وأيديهم، فيجد أتباعه يفترشون الرمضاء .. يلتحفون السياط .. يعجون إليه يطلبون الإذن بالهجرة من جديد؟ فيأذن لهم، وكانوا هذه المرة أكثر من ثمانين صحابياً معذباً .. يريدون أن يعبدوا الله بحرية، ويعمروا الدنيا بسلام، فأذن لهم ﷺ.

(١) إسناده صحيح: رواه الإمام أحمد ٣-١١٢، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك، والأعمش مدلس وقد عنعن، لكن يذهب شبهة تدليس كونه رواية شيخه التابعي الثقة: أبي سفيان، طلحة بن نافع القرشي، فقد جاء في التهذيب (٢٦/٥): روى عنه الأعمش وهو راويته، بالإضافة إلى أن وكيعاً قال عن أبي معاوية: ما أدركنا أحداً كان أعلم بحديث الأعمش من أبي معاوية.